مجلة العمدة في اللسانيات وتحليل الخطاب
Issn:2572-0058/E-issn:1969-2676
https://www.asjp.cerist.dz/en/PresentationRevue/485

لمجلد:06 العدد: 02 (2022) ص120/129

الحداثة وسؤال التجاوز(في فهم الثابت والمتغيرعند أدونيس)

Modernity and the question of transcendence (on understanding the fixed and variable in Adonis)

حنان حطاب*

جامعة محمد لمين دباغين سطيف 2 - الجزائر

hhattab.hanane@gmail.com

معلومات المقال

تاريخ الإرسال:
2021/05/24

تاريخ القبول:
2022/01/03

الكلمات المفتاحية:
- ✓ الحداثة، التراث
- ✓ الثابت، المتحول
- ✓ التجاوز، الهوية

الملخص:

تضطلع هذه الورقة البحثية بمهمة الكشف عن الفكر الحداثي القائم على مبدأ التحرر والانعتاق من نسق السائد وسجن الماضي، تـأسيسا لفكرة الانفتاح والتجاوز، حيث برزت أفكار الناقد أدونيس التي حاولت مناهضة مركزية التراث والقضاء على النموذج العربي ومنحه بدائل تتواءم مع الفكر الحداثي الغربي.

تأسيسا على هذه الشرفة، يطرح سؤال التجاوز والهوية، وجدل الثابت والمتحول، وذلك نظرا لما يحتله التراث العربي والإسلامي من مكانه في الذاكرة الجماعية والوجدان العربي لأبنائه، في مقابل موجة الحداثة وما خلفته من تأثير واستلاب.

إذا كان ذلك كذلك، كيف كان موقف النقاد العرب من الحداثة الغربية، ثباتا وتحولا، تماثلا واختلافا ؟.

وما هي محددات الحداثة الشعرية عند أدونيس؟.

Article info

Received
24/05/2021
Accepted
03/01/2022

Keywords:
- ✓ *Modernity, Heritage*
- ✓ *Fixed, Variable*
- ✓ *Transcendence, Identity*

Abstract :

This research paper aims at identifying the modernist thought based on the principle of liberation and emancipation from the dominant pattern and imprisonment of the past. In order to establish the idea of openness and transcendence, in which the ideas of the critic Adonis have emerged, attempting to oppose the centralization of heritage, eliminating the Arab model by giving it alternatives consistent with Western modernist thought.

On the basis of this study, the question of transcendence and identity, and the fixed and the variable controversy is arised. This is due to the place occupied by the Arab and Islamic heritage in the collective memory and Arab conscience of its children, in contrast to the wave of modernity withits successive influence and alienation.

If so, how was the position of Arab critics on Western modernity concerning: fixity and variation, similarity and difference?

What are the determinants of Adonis' poetic modernity?

*المؤلف المرسل

مقدمة:

ليس ببعيد عن الإدراك، ذلك السّجال الحاصل في الثقافة العربية بعد موجة الحداثة الغربية التي اكتسحت جميع المجالات، فلم تكن حكرا على النقد أو الأدب وإنما ارتبطت بالسياسة والتاريخ والاقتصاد وعلم الاجتماع ... إلى أن أصبحت "بنحو من الأنحاء نزعة إنسانية شاملة"[1] وورّطت الإنسان في ثالوث من العجز والحيرة تمثل في : "كان"، "يجب" "سنفعل" فـ "كان يعني بالضرورة وهم الإحاطة المعرفية بالماضي، أما "يجب" فإنها اللحظة تفقد راهنيتها تماما، وأما " سنفعل" فإنه علامة إرادة بلا أفق، حلم مهزوز نستيقظ منه في كل مرة ولا نمسك عند محاولة تذكره إلا بالكل المجرد الذي يعني شيئا محددا"[2]

إنه وتأسيسا على هذه الشرفة، يُطرح سؤال التجاوز والهوية فهما ومساءلة، رفضا وانبهارا، قلقا وإلحاحا. وذلك نظرا لما يحتلّه التراث العربي والإسلامي من مكانة في الذاكرة الجماعية والوجدان العربي لأبنائه، في مقابل موجة الحداثة التي أسرت العقول وأبهرت الشعراء والنقاد بطروحاتها الجديدة.

والواقع أن سؤال التجاوز والقفز على الراهن لبلوغ ما هو أسمى أصبح هاجسا ملازما للفكر العربي، فهو سؤال "متصل بنا وبالآخر فينا.... كيف نُقاوم فينا هوس الفرار إلى الماضي في كل ما نفعل؟ كيف نُعيد للآخر الغربي حضوره الفاعل فينا بعيدا عن فكر المركزية فيه والعنصرية ونبذ الشعوب الأخرى ونهبها والتخطيط لتحويلها ومحاربتها؟ كيف نقتحم بفكر الاختلاف الجنيني فينا عصر الفعل الحضاري والمستقبلي ونربط أسئلتنا بالممارسة والفائدة في مدلولها الواسع"[3].

بهذا التّمشي تكون علاقة الأنا بالآخر، شاغلا أساسيا لكل من ناصر التراث ونصّب العداء للحداثة. ولكل من عادى مركزية التراث وانفتح على الوافد الحداثي، وفي هذا الصّدد يقول عبد الله العروي:" إن رباطنا بالتراث الإسلامي في واقع الأمر قد انقطع نهائيا وفي جميع الميادين، وإن الاستمرار الثقافي الذي يخدعنا -لأننا مازلنا نقرأ المؤلفين القدامى ونؤلف فيهم -إنما هو سراب، وسبب التخلف الفكري عندنا هو الغرور بذلك السراب وعدم رؤية الانفصام الواقعي، فيبقى حتما الذّهن العربي مفصولا عن واقعه متخلّفا عنه بسبب اعتبارنا الوفاء للأصل ..حقيقة واقعية مع أنه أصبح حنينا رومنسيا منذ أزمان متباعدة"[4] " وفي مقابل هذا يؤكد جورج طرابيشي على ضرورة المثاقفة والتحاور مع الآخر، وأن العدائية مردها الاستعمار فـ" الأمة المستَعمرة سابقا ما تزال، بفعل عملية المثاقفة Acculturation، أي استيراد ثقافة المتروبول، تحس إحساسا ساحقا بدُونيتها" المؤنثة إزاء "رجولة" ثقافة الغرب و"فُحولتها" وما دمنا هنا في صدد الأدب الروائي الذي يتناول بالعرض والمعالجة العلاقات الحضارية بين الشرق والغرب، فإن العامل الأخير أي المثاقفة، يبدو حاسم الأثر في إلباس تلك العلاقات الحضارية المزروعة رداء ومضمونا جنسيين "[5] ويقصد بهذا الكلام أن علاقة العربي بالآخر الغربي مسكونة بهواجس الذكورة والأنوثة إذ يبرز الغربي بفحولته المستمدة من تراثه في مقابل آخر عربي تُستباح أنوثته بفعل التحضر والتمدن. ومن جهة ثانية قد تنقلب الصورة ليتحول الغربي إلى فحل مُهيمن أمام عربي مستَعمر أو مُهيمَن عليه.

والحال إن هذه المعادلة لا يمكن النظر إليها نظرة أحادية مطلقة، إذ لا سبيل للقطع الكلي لهذه العلاقة مع الآخر، كما لا يجب التّماهي معه ذوبانا وانْسلاخا عن الهوية الجمعية .ولهذا كان لزاما الوقوف عند مفهوم الحداثة وماهيتها.

أولا - الحداثة بما هي نزعة شمولية:

اتّسمت الحداثة بالشمولية حيث غطت حقولا معرفية كثيرة، ذلك أن "مصطلح الحداثة نشأ ضمن حقل النقد الأدبي ثم استُثمر ووُظف في حقول معرفية أخرى كالاجتماع والسياسة والتحليل النفسي والتقنية والألسنية والاقتصاد واللاهوت ليشير إلى فترة زمنية تاريخية مر بها الغرب"[6] ومع ذلك ظلت الحداثة من نوع المفاهيم المتمردة البعيدة عن الفهم إذ " تدخل ضمن

المفاهيم المُسْتعصية على التعريف والتحديد، الرافضة لكل نَمذجة، والمصنفة بعدم القابلية والقدرة على قبض مفهوم ناجز لها"[7]

ولهذا فقد شكل هذا الإلغاز المصطلحي أزمة في الأوساط النقدية والفكرية، "فقد حققت الحداثة صدمة لجميع الأمم التي كانت خارج إطار مشروعها التاريخي مما حتم عليها أن تتأثر بصداها المتمثل في أفكارها وإنجازاتها التقنية والعلمية، إلا أن الصدى لم يقتصر على المجتمعات العربية فحسب، بل يشمل المجتمع الغربي نفسه في إطار مساءلته الدائمة وتجديده المستمر لمشروعه الحداثي"[8].وبهذا شكل مفهوم الحداثة "مفهوما عائما ملغوما يلغي ذاته باستمرار، بيد أنه استطاع أن يخلق فينا ردودا متناقضة، توترا نادرا بين الارتكاس والانبهار، بين الدعاية اللامشروطة والرفض المبرم"[9] .وعلى هذا النحو، اتخذت الحداثة في شقها الغربي مفهوم الخروج عن المقدس، ومناهضة المألوف والسائد والنمطي والعصف بالمسلمات والبداهات حتى وإن كان مردها دينيا فـ" لقد مزّقت الحداثة العالم المقدس الذي كان إلهيا وطبيعيا في آن، وكان مخلوقا وشفافا أمام العقل ... وأطاحت الحداثة بوحدة عالم خلقته الإرادة الإلهية أو العقل أو التاريخ وحلت محله العقلنة وتحديد الذات".[10]

عرفت مصطلحات الحداثة في الثقافة العربية تباينا كبيرا، رغم أن أغلبها تشير إلى معنى "حديث" ورغم صعوبة تحديد وضبط زمن ظهورها، إلا أن هناك من يرجعها إلى ق 14 ميلادي. فيما يربطها البعض بالقرن 17م.

وقد استعمل المصطلح بداية للتعبير عن "الاعتراض عما هو قديم والذي كان يميز العصور اليونانية والرومانية القديمة"[11] ولكن معناها ازداد تعقيدا وغموضا مع الزمن .

الحداثة، إذن، هي ثورة على القديم وسعي لتجاوزه ودعوة إلى كل جديد مستحدث، إنها " في النهاية ثورة على التقليد ورهان على التّجريد والتّجريب والتّجديد"[12].وسعي للتجاوز ودعوة إلى كل مستحدث، ولهذا ارتبط مفهومها الحقيقي بالثورة على السائد النمطي والميتافيزيقي والأسطوري الذي غلب لفترة طويلة على الفكر الغربي. فجاءت الحداثة نورا بدد ظلام الميتافيزيقا وفتح أبواب المعرفة الجديدة والعلم والحرية والذات الإنسانية إنها " نتاج غربي محض ومحصلة لسياق التطور الغربي"[13].

وعلى هذا الأساس تأخذ الحداثة معناها الشمولي ودلالتها العامة بوصفها" ذلك الوعي الجديد بتغيرات الحياة والمستجدات الحضارية والانسلاخ عن أغلال الماضي والانعتاق من هيمنة الأسلاف، وأنها ليست ظاهرة مقصورة على فئة أو طائفة أو جنس معين، بل هي استجابة حضارية للقفز على الثوابت، وتأكيد مبدأ استقلالية العقل الإنساني اتجاه التجارب الفنية السابقة"[14].

والحال إن هذه الشمولية والضبابية التي اتّسمت بهما الحداثة، أسهمت في خلق صراع كبير في الثقافات كما أفْرزت جملة من السّجالات الفكرية والنقدية، حيث انقسم النقاد إلى معسكرين متباينين يدافع الأول عن الهوية العربية والتراث حرصا وتجميدا وتأصيلا، ومعسكر ثان منبهر بالحداثة ومتغيراتها، رافض لجمود التراث وانغلاقيته. لتظل الحداثة سؤالا متجددا ومؤرقا في آن " نبحث عنها، نحن إليها أو نُغلق دونها الأبواب، نحاكم المرتدين بجريمة الانتماء إليها، فتتحول الحداثة في منظورنا العام إلى أفق آخر نبتغيه أو يهددنا، نصالحه أو يدمرنا، مرة نرى إلى هذا الجسد الغريب في كُلّيته ومرة نسرق منه أدوات حمايتنا، والكل متورط في الحداثة معها أو ضدها، يختارها كبديل لموروث الشرق، أو جدارا حديديا يَترك الشرق يتيما لا شرق له ولا غرب"[15].

ثانيا- حداثة الشعر عند أدونيس

سعى أدونيس إلى تقويض معمارية الثابت والتأسيس لجمالية المختلف عبر فكرة التجاوز، تجاوز السائد/النمطي/الأحادي واستبداله بالمتحول /المتعدد من خلال البحث في المجهول عبر أفق استشرافي للمستقبل . ولهذا فقد دخل عالم النقد" مُستظلا بالحداثة مؤرخا ومنظرا، ومؤولا لها، وقد قطع مسافة طويلة من الإبداع والبحث منذ أن كانت الحداثة عنده هاجسا، إلى أن تبلورت في دراسات ومواقف وبيانات"[16] فجاء المشروع الأدونيسي هدّاما للنظام العربي السائد،

منفتحا على نمط تَفكري جديد يواكب –حسبه العصر ويجيب عن إشكالاته وهواجسه . وتحول مفهوم الحداثة عنده إلى "موقف وعقلية، إنها طريقة نظر وطريقة فهم، وهي فوق ذلك وقبله ممارسة ومعاناة، إنها قبول بكل مستلزمات الحداثة، الكشف، المغامرة، واحتضان المجهول"[17]وقد اتخذ هذا المشروع الحداثي نمطين مغايرين اشتغل الأول على الشق الديني، فيما ارتبط الثاني بالحركة الشعرية .

تطرق أدونيس في الشق الديني إلى مسألة الخلافة الإسلامية بعد وفاة النبي صلى الله عليه وسلم، وما أثارته من جدل بين الصحابة (حادثة سقيفة بني ساعدة)التي تعددت فيها الآراء وتباينت التّبريرات واتّخذت أشكالا مختلفة، وقد أدرجها أدونيس في قوله: "الشكل الأول هو أحقية الأنصار بخلافة الرسول، لأنهم هم الأسبق للإيمان بالإسلام ونصرته، والشكل الثاني هو أحقية قريش لأنها عشيرة محمد وأهله، والشكل الثالث هو تعدد الإمارة "[18]

وهذا يعني أن أدونيس استدل بمشكلة الخلافة في طرحه لقضية الثبات والتحول التي أفْضت إلى زعزعة استقرار الدولة الاسلامية وتحول النظام السائد، إضافة إلى الجدال حول المرجعية الدينية للمسلمين والتي يفترض أن تقتصر على القرآن والسنة .ولهذا يرى أدونيس أن مشكلة الخلافة كانت النواة الأولى للتّحول والتّغير الثقافي والفكري الذي عرفه المسلمون، إذ فتحت الباب واسعا لبروز الفرق (القدرية –الجهمية-الصوفية-المرجئة..) والرؤى والتأويلات والعقائد والطروحات. كما فتحت باب القراءة والتأويل أمام أدونيس الذي لايجد مشكلة في الخوض في المناطق المحرمة، ولايعنيه المقدس أو الديني، ذلك أن الحداثة ترتكز على فكرة التجاوز ومبدأ التعددية القرائية.

في مقابل هذا، يشير أدونيس للتحول الذي طرأ على الحركة الشعرية منذ العصر الجاهلي، فقد اعتمد العرب أنموذجا واحدا في الكتابة لايمكن الخروج عنه، لهذا يعد التمرد على هذا النمط تحوّلا حداثيا، إذ ينظر "لامرئ القيس" بوصفه النموذج الأول للحداثة من خلال خروجه عن الأنموذج الأصل وقلبه لنظام الكتابة التقليدية، وكذا التمرد على نظام القبيلة. كما عد أدونيس ظهور الشعراء الصعاليك تمردا فعليا على القبيلة وعلى نهج الحركة الشعرية من خلال خروجهم عن بنية القصيدة الجاهلية.

كذلك رأى أدونيس أن هذا التحول الفكري في الكتابة الشعرية كان نتيجة طبيعية للفتح الإسلامي الذي تجاوز نظام القبيلة لإرساء نظام الخلافة في الدولة الإسلامية، ونظر للشعر لابوصفه كلاما موزونا ومقفى وإنما ربطه بالقيمة الأخلاقية التي تنشدها القصائد .وهكذا"أصبح الشعر بحسب النظرة الإسلامية، فاعلية علمية، أي تفسيرا للواقع الديني، ورسما له، وتمجيدا ووصفا، أصبح بتعبير آخر فاعلية ذهنية عقلية تصدر عن وعي كامل [19].. وهذا ماجعل مفهوم الشعر ينحرف ويتحول عن مفهوم الشعر الجاهلي .

كما عرف الشعر العربي خروجا عن النسق التقليدي القديم وتحوُّلا بنائيا وفكريا بارزا مع كل من "بشار بن برد" "أبي نواس" "أبي تمام".وفي هذا الصدد، يقول أدونيس :"يعد بشار بن برد أول من زلزل أصولية العربي من ناحية الشكل، حيث أغرب في التصوير، أي جاء بتشبيهات لم تكن مألوفة عند الأولين، أما أبو نواس فعبر عنه بالموقف المضمون، أي يتحدث عن أشياء لم يرها، في حين كان جواب أبي تمام دعوة إلى أن يرقى القارئ إلى مستوى الشاعر"[20].وقد أشار أدونيس للحداثة في العصر العباسي وما رافقها من وعي، بوصفها المرجع الأول للحداثة العربية، ذلك أن الواقع يحتم تغييب المقدمة الطللية لغياب الأطلال، ومن ثمة وجب على الشاعر الانسجام مع الراهن والكشف عن اللحظة بكل حيثياتها والتحول من البكاء على الطلل والرسم على الديار إلى الحديث عن المدن العامرة . وهذا يعني أن التجاوز والخلق حتمية وجودية، والتقليد اجترار لنماذج تجاوزها الدهر وعفت عنها السنون، وتفلت من القيم الكلاسيكية والإيديولوجيات السائدة.

على هذا النحو، عمل أدونيس على استكناه حداثة النص الشعري القائم على طرائق تعبيرية جديدة، وأساليب تخييلية، ومنطق فني ورؤيا جديدة وفيض جمالي وروحي. فالشاعر الحداثي ينبغي عليه "أن لا يبني مفهوما شعريا جديدا إلا إذا عانى أولا في داخله انهيار المفاهيم السابقة ولا يستطيع أن يجدد الحياة والفكر إذا لم يكن عاش التجدد قصفا من التقليدية وانفتحت في أعماقه الشقوق والمهاوي التي تتردد فيها نداءات الحياة الجديدة"[21] وهي دعوة صريحة للشاعر من أجل التجديد والتجاوز والخروج عن السائد والمألوف. "فالشاعر الجديد متميز في الخلق في مجال انهماكاته الخاصة كشاعر وشعره مركز استقطاب لمشكلات كيانية"[22] ذلك أن الشعر مجال خصب للخلق والإبداع والابتكار، ومدار رقيه إنما لا محدودية الطرح وكونية المسعى والكشف عن المجهول.

هي إذن، حداثة أدونيس خالصة تفتح الأفق رحيبا لتعكس هواجسه وهوس التغيير والاختلاف لديه، حتى باتت متفردة بجملة من الخصائص الشعرية، يمكن حصرها على هذا النحو[23]:

- الصدور عن رؤية وموقف.
- الاهتمام الأساس: التقليد – التجديد.
- العالم مشكلات وأسئلة تقود إلى مزيد من الأسئلة لا حلول وأجوبة.
- كتابة تستند إلى التحليل.
- كتابة تستخدم المفردات في غير ما وضعت له أصلا، اللغة ليست مجرد وسيلة، اللغة، الذات، المجاز.
- كتابة غايتها التخييل.
- اللامنتهي هو المدار.

من على شرفة ماتقدم، لا يستقيم أمر الحداثة إلا بالخروج من المركزية تراثية كانت أم حداثية، وقبول الآخر دون اختزال للذات أو طمس للهوية. واحترام للكينونة الإنسانية والحضارة الإسلامية، وهذا قريب من اعتراف أدونيس حين قال: "أحب هنا أن أعترف بأني كنت من بين الذين أخذوا بثقافة الغرب، غير أنني كنت كذلك من بين الأوائل الذين ما لبثوا أن تجاوزوا ذلك، وقد تسلّحوا بوعي ومفهومات تُمكنهم من أن يُعيدوا قراءة موروثهم بنظرة جديدة وأن يُحققوا استقلالهم الثقافي الذاتي"[24]،ثم يواصل اعترافه بفائدة الدراسات الغربية التي نهل منها فكانت خير عون وسند له في دراساته، "وأُحب أن أعترف أيضا أنّني لم أتعرف على الحداثة الشعرية العربية من داخل النظام الثقافي العربي السائد وأجهزته المعرفية، فقراءة "بودلير" هي التي غيّرت معرفتي بأبي نواس وكشفت لي عن أسرار شعريته وحداثته، وقراءة "مالارمية" هي التي أوضحت لي أسرار اللغة الشعرية وأبعادها الحديثة عند أبي تمام، وقراءة رامبو ونرفال وبريتون هي التي قادتني إلى اكتشاف التجربة الصوفية بفُرادتها وبهائها وقراءة النقد الفرنسي الحديث هي التي دلتني على حداثة النظر النقدي عند الجرجاني، خصوصا كل ما يتعلق بالشعرية وخاصيتها اللغوية – التعبيرية"[25].

إن مثل هذا الخطاب قد يعكس تكوين أدونيس ثقافيا ونقديا، كما يرسّخ –من منظور البعض- ثقافة الآخر على حساب الكتابة العربية التي لم تتضح معالمها عند أدونيس إلا عبر وساطة منهجية وإجرائية غربية، إذ يطرح أدونيس الغربي /الآخر/المختلف بوصفه وسيطا ثقافيا وفكريا مرنا لفهم التراث وولوج مغاليقه، وبهذا " جميع هذه الآراء تقدم ثقافة الآخر على أنها ثقافة أكثر مرونة ومستساغة بشكل يفسر نتاج الآخرين حتى مع اختلاف اللغة. وهو يضع النص العربي (الشعر والنقد) في حالة غياب شبه تام حين لم يتمكن هذا النص من تقديم نفسه إلا بالواسطة"[26].وهذا إنما يدل على نمط تفكري مغاير يتبناه أدونيس في رؤيته الحداثية.

إن ناقدا / شاعرا مثل أدونيس يحاول أن يستحضر جملة من الحقائق التي تلازم العملية الإبداعية الخلاقة[27]:

الأولى: ليس التراث ما يصنعك بل ما تصنعه، التراث هو ما يولد بين شفتيك ويتحرك بين يديك، التراث لا ينتقل بل يُخلق.

الثانية: ليس كل الماضي ما مضى، الماضي نقطة مضيئة في مساحة معتّمة شاسعة . فأن ترتبط لمبدع من الماضي هو أن تبحث في هذه النقطة المضيئة، الوفاء لغير هذا البحث وفاء سقوط مسبق.

الثالثة: جوهر القصيدة في اختلافها لا في ائتلافها، إنه في الفرق الذي يعدّد العالم ويكثره، وإذا كان الجوهر في الفرق وفي الاختلاف فلا شيء يعوض عن الشعر أو يحل محله.

على هذا النحو يشتغل الخطاب الحداثي الأدونيسي متفلّتا من سطوة الماضي ومأزقية التراث ومغاليقه، ذلك أن الحداثة تجاوز للراهن ومغامرة للكشف عن المجهول، وتأسيس لنص اختلافي يُبنى على الخلق والمغايرة .

ثالثا- جدل الثابت والمتغير:

يمثل كتاب الثابت والمتحول بحث في الاتباع والإبداع " التأسيس العلمي لبدايات مرحلة نقدية فكرية ذات فلسفة جديدة في الفكر العربي، تبنى عليها حاليا ويمكن أن يبنى عليها في المستقبل تراكم فلسفي نظري جديد من شأنه أن يبلور فكرا نقديا خاصا بالثقافة العربية، بمستوى النضوج المنهجي للفكر النقدي الغربي"[28]،ورغم محاولة أدونيس الغوص في الفكر الغربي قراءة ودراسة إلا أنه كان "عصيا عن التغيب حتى في أشد توغله في قراءة الفكر العربي"[29].مما عرضه لأكبر نقد من قبل مختلف النقاد، فكان منهم من عده نقطة فاصلة في مسيرة الفكر العربي، فيما انطلق آخرون بكلمات لاذعة تنتقده وتنتقد منهجه الذي يعترف بعدم تبنيه لأي منهج، واتجاهه نحو أفق غير مرئي، وتعود جملة المزالق والمخاطر التي وقع فيها أدونيس في "الثابت والمتحول" -وهي الأطروحة التي تقدم بها لنيل درجة الدكتوراه من جامعة اليسوعيين على حد قول "بشير تاوريرت" -إلى المنهج الذي تبناه في دراسة الثقافة العربية، وهذا ما أجمع عليه النقاد دون أن يمس ذلك الإجماع طبيعة المنهج المتبع. فقد تعددت المناهج وتباينت بتعدد النقاد وتباين طرحهم لهذه المسألة الخطيرة"[30].

حاول أدونيس من خلال أطروحته أن يقف عند حدود الجدل بين ما هو ثابت وما هو متغير بغية قراءة الإنتاج الثقافي العربي. وقد انطلق في مشروعه بمحاولة تحديد وضبط المصطلح فقال:" أُعرّف الثابت في الثقافة العربية بأنه الفكر الذي ينهض على النص، ويتخذ من ثباته حجة لثباته هو فهما وتقويما(...)وأعرّف المتحول بأنه الفكر الذي ينهض هو أيضا على النص،لكن بتأويل يجعل النص قابلا للتّكيف مع الواقع وتجدّده "[31]وهذا يعني أن الثبات مرجعيته النص الواحد /الثابت الذي يمنح الحجية والإقناع، فيتخذ فهما واحدا ودلالة واحدة، أما التحول فيرتبط مفهومه بالتغير والتبدل ، فهو يقوم على التعددية القرائية والتأويل والانفتاح .

ومن هنا " لا يمكن فهم القراءة الأدونيسية دون أن يكون هناك اقتراب واع من هذا المؤلف. بمعنى أن معرفة المتن الأدونيسي تتأتّى بصورة مباشرة من معرفة هذا المتن. وهو يشكل نقطة إضاءة لباقي مؤلفاته التي يمكن أن نعدها هوامش ظلت تدور في فلك الثابت والمتحول"[32].ولقد تطرق فيه لدراسة محوري الاتّباع والإبداع، فأما الأول فهو نهج للتقليد الأعمى والتبعية السلبية التي ترسخ الأفكار الثابتة، فيما الإبداع يعني التفاعل الإيجابي المثمر والمتجدد" فالفرضية الأولى أن الاتّباعية هي التصور والمنهج اللذان يحكمان العقلية العربية. بحيث لا يمكن تفسير الاتّباعية على مستوى الشعر دون الرجوع إلى جذورها في الحياة العربية القائمة على الرؤية الدينية الإسلامية بجميع مستوياتها الأساسية والفكرية، والفرضية الثانية أن مظاهر الابتداعية ارتبطت بالخروج على الثابت المتمثل فنيا في عمودية الشعر. وفكريا في القيم السائدة، لكن منحى الاتباع والثبات شمل كل مظاهر الحياة حيث عد الثقافة العربية بشكلها المورث ثقافة اتباعية"[33]. والواضح أن أدونيس حاول من خلال "الثابت والمتحول" أن

يُوقّع مشروعا رياديا، إنه فسيفساء من الرؤى والأفكار وحالة من حالات القفز والتجاوز لكل ثابت عربي شعريا كان أو حداثيا، بل هي قراءة غيرية للعقل والتراث العربي ومجاوزته فكريا ومعرفيا .

انطلق أدونيس يتحدث عن الحداثة الشعرية في ظل قطبي "الثابت والمتحول" من أجل إعادة هيكلة الثقافة العربية القديمة فقال :" إن العلامة الأولى للجدّة الشعرية هي اتصال الانفصال إن صح التعبير. أي في نفي السائد المعمم، ورفض الاندراج فيه، فالرفض أو النفي هو بهذا المعنى علامة الأصالة إلى كونها علامة الجدة[34]"، ولكن ذلك النفي لا يعني أبدا عدم الاعتراف بالماضي، كما لا يعني في الآن نفسه الرجوع إليه والتوغل فيه إلى حد التمجيد والتقديس بقدر ماتعني الانطلاق منه ثم تجاوزه. وعليه " إن العودة إلى الماضي الشعري العربي بتعبير آخر لا تعني الإقامة في هذا الماضي إنما تعني على العكس تجاوزه[35]".

هكذا ينظر أدونيس إلى التراث العربي. وهكذا يقر بوجود تعارض كبير بين كل ما هو قديم وجديد، أو بين الثابت والمتغير فكان" رسم الحداثة الشعرية العربية عنده من خلال هذا المخطط باعتباره خلاصة قراءته للتراث[36]:

الحداثة الشعرية= التحول
- فكري (رفض القيم الثابتة= إلغاء الدين)
- فني (رفض عمود الشعر= إلغاء النموذج الشعري القديم)

من هذا المنطق أثارت آراء أدونيس جدلا وسجالا عنيفا حتى أن بعض النقاد ذهبوا لتشبيه منهجه في البحث بمنهج ديكارت، فالجهد الأدونيسي " ينهج في النهاية نهج الشك الديكارتي الذي ينطلق من الشك في كل شيء ليصل إلى اليقين والذي يجب أن يتحرر من كل فكرة مسبقة ومن كل حقيقة شائعة مألوفة...[37]". فهو شك منهجي يتجاوز الأحكام القبلية والبداهات والمسلمات ويخضع للعقل والمنطق .كما أن هناك من يناقض أدونيس في مسألة الجدل بين الثابت والمتحول ويختلف معه حين " جعل منهما خطين متوازيين لا يلتقيان. علاوة على إنكار العلاقة الجدلية بينهما.. تفاعلا وتبادلا ..وأدى تفاعلهما إلى مزيد من الغنى في الحياة العربية. واستطاع أن يبني على مر الزمن حضارة متطورة صورت التجديد دون أن يبدو ذلك مناقضا لأصول خارجة على جوهر الفكر الديني"[38]،وهذا ما لاحظه الناقد "عبد الله عبد الدائم". وفي مقابل هذا، فإن محمد كامل الخطيب" يقدم هو الآخر دراسة نقدية للمنهج الأدونيسي فيقول: "إذا كان أدونيس قد عمل على الفصل بين عناصر الثابت والمتحول وهي الفكرة التي يقوم عليها منهجه. فإن هذا المنهج أدى بدوره إلى رؤية الحركة التاريخية الاجتماعية الثقافية كعملية جدل وتفاعل. فإنكار جدلية التأثير والترابط والتفاعل بين عناصر الثبات والتحول. كل ذلك قاد ووجه بحث أدونيس وجهة مغايرة تفتقر للدقة والوضوح ويستدل الباحث بخطورة النهج الاستعماري في عملية الفصل بالمذهب الرومانسي والوصفية[39]".وهذا يعني وقوع أدونيس في التناقض والارتباك في تحديد منهجه الذي نفى التفاعل والانسجام بين عناصر الثبات والتغير، والذي أبان عن مشروع تعسفي مناهض للعقل العربي ومكوناته، ومن ثمة يبرز محمد كامل الخطيب عدة نقاط خلافية في منهج أدونيس" الثابت والمتحول" النقطة الأولى تتعلق بوصف أدونيس للذهن العربي، ويرى في ذلك تعسفا. أما الثانية فتتعلق بأحكام أدونيس التعسفية. والمضادة للمنهج العلمي. موضحا بأنها تهدف إلى توسيع عناصر الحركة التي تفرض نفسها. وأما الثالثة فترتبط بوصف أدونيس للإنسان العربي. إذ ليس من المنهجية العلمية في شيء أن تطلق عليه أحكاما نهائية. وأما الرابعة فترتبط بفكرة الفصل. إذ قدم على اليابسة وأخرى في الماء، وما عاد يفيد أحدا. وتحت ستار منهجية علمية مقدمة بلغة تقرير صارمة، وكأنها تعطي الأحكام النهائية القاطعة. والنقطة الخامسة يخفف فيها الناقد من وقع سياطه النقدي، فيصرح بأن مخالفته للكتاب في منهجه وبالتالي في نتائجه. فهذا الخلاف على المنهج لا يحول دون تقرير الجهد المضني والبحث الدؤوب وهما ما تميز بهما البحث. وأما النقطة السادسة فيعود فيها الناقد ليخالف أدونيس في دعوته الرامية لنقد التراث بأسلحة من داخله وليس من خارجه. فذلك خطأ منهجي يدل على موقف طبقي فكري فنقد التراث من داخله. إنما هو تكرار لهذا التراث وليس نقدا، فالصوفية والإمامية – وهي الأسلحة التي يدعو الكاتب إلى انتقاد التراث بواسطتها- ليست إلا من أشكال التراث العربي وبالتالي هي موضوع ولا يمكن أن تكون أداة[40]".

ويبلغ نقد المنهج الأدونيسي ذروته مع جهاد فاضل الذي يتهم أدونيس بغياب المنهج، وبأنه لايملك مشروعا نقديا وإنما أفكار متناقضة مردها الوهم والخيال ".... فالمؤلف (أدونيس) لم يكن لديه منهج، وبالتالي لم يكن ما كتبه تطبيقا لمنهج، إنها أفكار منثورة كيفما اتفق خياله أحيانا، شعرية وغير عملية أحيانا أخرى. ومتناقضة دوما فبأي منطق مثلا يمكن اعتبار الإمام الغزالي ثابتا؟ الباحث القلق والمقلق الذي عاش تجربة فذة في "المنقذ من الضلال" والذي أثرى الفكر الإسلامي أيما إثراء"[41]. ويستمر الباحث جهاد فاضل متسائلا "أليس من التعسف الخالي من الموضوعية اعتبار كل خارج متحولا أي مبدعا؟ ولماذا عندما نتفحص أبطال أدونيس في التحول "لا نجدهم في غالبيتهم إلا من الأقليات الدينية أو العرقية الحاقدة. ولماذا نجده عندما يعرض لأفكارهم ويحيطها بكل عناية ويتعسف فيستر عيبهم بل يصورهم على غير صورتهم الثابتة[42]".

في حين يمضي حسن الأمراني في نقده لأدونيس إلى جانب آخر هو عدم تحديده للمصطلحات وكذا الجاهزية في عرض القضايا فيقول:"تحديد المصطلح إذن أمر لازم عند كل تقويم وإن كان الكاتب يوهمنا أنه يعرض تجليات المفاهيم أو المعاني كما أفصح عنها التراث المدروس، فإن دراسته تكشف بوضوح أنه قد حدد سلفا مفهوما ثابتا للحداثة يرتبط ارتباطا وثيقا بالخروج، عن الأصل، هذا الأصل الذي هو في نهاية المطاف :الإسلام "[43].

وبهذا يجمع هؤلاء النقاد على كون المنهج الأدونيسي مجرد منهج استعاري انتقائي . يفتقد للضبط المنهجي، وينطلق من التحامل والتعسف والصرامة في تصوير الذهن العربي والاحتفاء بكل ماهو غربي تحت شعار الإبداع والتحول.

وفي مقابل هذا، يصف حسين مروة منهج أدونيس، بأنه منهج المادية –التاريخية، الذي يقرأ التراث بطريقة أكثر فاعلية ضمن أساسين هما:

-اعتبار التراث واقعا تاريخيا مرتبطا بطريقة تاريخية معينة، والنظر إليه على أساس مقاييس هذه الظروف، أي أن نراه ضمن إطار محدد لايتجاوز حدود زمانه أو مكانه.

-إن الرؤية للتراث في إطار ذاك تستمد مقوماتها من المعرفة المعاصرة أو من مفاهيم المعاصرة فهنا إذن عنصران:

تراث يحدد بإطار الماضي ورؤية تتحدد بالمعرفة الحاضرة، وأعني بهذا المنهج التاريخي"[44]بل يواصل نقده، محاولا النفوذ والتوغل إلى صلب المنهج الأدونيسي فيقول: يبدو منهج أدونيس مثاليا لا تاريخيا لأنه جرد الفكر العربي من ظروفه التاريخية، ويدرسه كفكر منعزل عن واقع مجتمع عربي في العصر الوسيط وسائر العصور الأخرى التي تناولها بالدراسة، كما أختلف معه في "الثابت والمتحول "فإن المتحول والثابت عنده لايتفق مع مفهوم السيرورة التاريخية للواقع الاجتماعي .[45]

يبدو أن أدونيس قد نحا في فهمه للثابت والمتحول منحى مغايرا، آثر من خلاله النموذج الغربي على حساب التراث العربي، وهو الأمر الذي رفضه بعض النقاد فيما رأى البعض الآخر أن منهجه يعكس عمق رؤاه الفكرية ووعيه المعرفي، إذ عد أدونيس "ناقدا من طراز جديد قرأ كل شيء مجازا، ليفرز لنا بعد هذه القراءة تأملات نظرية عن الشعر والشاعر، وهي التأملات التي أخذت شكل التنظير النقدي في بعض منعطفاتها وتجلياتها، وعلى الرغم مما قدمه النقاد العرب والأجانب قدماؤهم ومحدثوهم فيما يخص مسائل هذا الكتاب إلا أن نقدنا العربي اليوم واستنادا إلى جدارة التصور الذي طرحه أدونيس آن له ليقول: وأخيرا جاء أدونيس"[46].

فحداثة أدونيس نتاج فكري مغاير يفتح الجدل في قضايا شائكة ومصيرية ويؤسس لمنظور نقدي جديد يقدم قراءات نقدية للتراث العربي بعيدا عن أصنام التمجيد والتبجيل."أدونيس وهو يمخر عُباب هذا المحيط الثقافي وما يكتنزه من ركام معرفي أجده يخط ضفاف علوم وأفكار فلسفية كانت أم أدبية.أقول فلسفية لأن تأثره بالفلسفة خصوصا الفيلسوف الألماني هيدغر أكثر من تأثره بالأدباء النقاد، لاسيما الفلسفة الصوفية والظواهرية ..."[47]

خاتمة:

حقيق بنا في هذا المقام، أن نؤكد على أن الجهد النقدي الذي قام به أدونيس لا يمكن إغفاله، إذ حاول التأسيس لنموذج حداثي في قراءة النصوص، فهي عالم من التساؤل والاحتجاج، بل هي معاناة ومكابدة، إنها مغامرة وكشف لعوالم المجهول ولحظة إبداعية تتجاوز الراهن/السائد لتخلق عالما جديدا.

يمكن تلخيص أهم النتائج المتوصل إليها على هذا النحو:

-الحداثة مطلب مشروع وشرط ضروري للنهوض بالفكر العربي، مع ضرورة مراعاة الخصوصية العربية الإسلامية

-لا ضرر في الانفتاح على الغرب، وفتح آفاق الحوار مع الآخر، وإنما الانفتاح المشروط بعيدا عن التبعية والانسلاخ.

- المشروع الأدونيسي يعد تأسيسا تحوليا لفكر نقدي عربي من شأنه أن يحقق فرادته واختلافيته ضمن الثقافة العربية.

- إن دعوة أدونيس إلى هدم البنى السائدة يعني الدخول في التراث من أجل إعادة قراءته، دون البقاء أمامه تمجيدا وتقديسا، فالتراث عنده مرتبط بالإبداع لا الجمود.

-الثقافة العربية ثقافة دينية اتباعية مرجعيتها الوحيدة هي النص .

- إن معارضة أفكار أدونيس مردها صعوبة قراءته، فهو يتفلت بشكل يجعل القارئ لا يمسك بتجربته الرؤياوية، ولا يمكنه تحديد منطلقاتها بسبب إبهامها وغموضها.

-المنهج الذي اتبعه أدونيس في قراءة الثابت والمتحول " هو اللامنهج، وكأنها محاولة لإبراز مقدرة النص على الاكتفاء بذاته .

-الحداثة عند أدونيس رؤية إبداعية شاملة وحالة وجودية عابرة للأزمنة والأمكنة .

-من الضروري النظر للمشروع الأدونيسي من خلال زاويتين متباينتين، حداثة شعرية رائدة كشفت عن عمق تجربته القرائية لكنها لم تسلم من الإغراق في الغموض والعبثية، وحداثة نقدية وفكرية تعبر عن حالة رؤياوية تتجاوز الثابت وتتفلت من التراث وتتذبذب بين تأييد ومعارضة .

الهوامش:

[1]- محمد الشيكر: هايدغر وسؤال الحداثة، إفريقيا الشرق، المغرب، ط1، 2006، ص124.

[2]- مصطفى الكيلاني: وعي اللحظة الراهنة في منظور الـ"نحن"، مجلة الفكر العربي المعاصر، 1991، العدد 90، 91، ص52.

[3]- المرجع نفسه، ص 55.

[4] عبد الله العروي :العرب والفكر التاريخي ،المركز الثقافي العربي ،لبنان/المغرب ،ط5 ،2006 ، ص61.

[5]- جورج طرابيشي، شرق و غرب، رجولة و أنوثة،، دراسة في أزمة الجنس و الحضارة في الرواية العربية، دار الطليعة، بيروت، ط4، 1997، ص ص 10-11.

[6]- رضوان جودت زيادة: صدى الحداثة، ما بعد الحداثة زمنها القادم، المغرب، 2003 ،ط1، ص 19.

[7]- المرجع نفسه، ص 17.

[8]- المرجع نفسه، ص 08.

[9]- محمد الشيكر، هايدغر وسؤال الحداثة، ص09.

[10] - آلان تورين: نقد الحداثة، تر: أنور مغيث ،المجلس الأعلى للثقافة، ط1 ، 1997، ص22.

[11]- محمد نور الدين أفاية: الحداثة و التواصل في الفلسفة النقدية المعاصرة، هابرمس، الدار البيضاء، المغرب، ط2، 1998، ص198.

[12]- محمد الشيكر: هيدغر وسؤال الحداثة، ص16.

[13]- رضوان جودت زيادة: صدى الحداثة، ص32.

[14]- عبد الله أحمد المهنا: الحداثة وبعض العناصر المحدثة في القصيدة العربية المعاصرة، عالم الفكر، الكويت، ع3، المجلة 19، 1988، ص6.

[15]- محمد بنيس: حداثة السؤال (بخصوص الحداثة العربية في الشعر و الثقافة) المركز الثقافي العربي، الدار البيضاء، ط2، 1988، ص109.

[16] - عبد السلام صحراوي : بيان الحداثة من أدونيس إلى محمد بنيس ،منتدى الأستاذ ، قسنطينة،العدد3، 2007 ،ص95.

[17] - أدونيس :زمن الشعر ،دار العودة ،بيروت،ط1 ،1985،ص ص102-115.

[18] - أدونيس :الثابت والمتحول، بحث في الاتباع والإبداع عند العرب،ج1 ،الأصول ، دار الفكر ، لبنان ، ط5، 1986 ، ص164.

[19] - المرجع نفسه،ص201،200.

[20] - أدونيس :مقدمة للشعر العربي ،دار العودة ،بيروت،ط3،1979،ص43.

[21]- أدونيس: زمن الشعر ، ص154.

[22] - المرجع نفسه ،ص ص 9-10.

[23]- أدونيس: كلام البدايات، دار الأدب، بيروت، ط1، 1989، ص ص 25-26.

[24]- أدونيس: الشعرية العربية، دار الآداب ،بيروت، ط1، 1989، ص86.

[25]- المرجع نفسه، ص86.

[26]- عصام العسل: الخطاب النقدي عند أدونيس (قراءة الشعر نموذجا)، دار الكتب العلمية، لبنان، ط1، 2007، ص136.

[27]- أدونيس :صدمة الحداثة ، دار الفكر ،لبنان ،ط5، 1986 ،ص324.

[28]- علاء طاهر: نهايات الفضاء الفلسفي (الفلسفة العربية بين اللحظة النية و المستقبل)،مكتبة مدبولي ،القاهرة ،ط1، 2007، ص 186.

[29]- عصام العسل: الخطاب النقدي عند أدونيس، ص06.

[30]- بشير تاوريريت: أدونيس في ميزان النقد (أربع مسائل خلافية بين ادونيس ومعارضة) مطبعة مزود، دط، دت، الجزائر، ص07.

[31] - أدونيس :الثابت والمتحول بحث في الاتباع والابتداع عند العرب ،الأصول،ج1،ص13.

[32]- عصام العسل: الخطاب النقدي عند أدونيس، ص07.

[33]- أمال لواتي: قراءة في الشعر القديم من الشك الى التأويل. مجلة الأدب و العلوم الانسانية العدد 5. قسنطينة. 2005. ص 277.

[34]- أدونيس: صدمة الحداثة. ص 253.

[35]- المرجع نفسه. ص57.

[36]- أمال لواتي: قراءة في الشعر القديم من الشك الى التأويل. ص295.

[37]- عبد الله عبد الدائم: حول رسالة ادونيس، التراث العربي بين الاتباع و الابداع. مجلة الآداب البيروتية. العدد8. السنة 21، 1973. ص9. نقلا عن بشير تاوريريت: أدونيس في ميزان النقد ص43.

[38]- المرجع نفسه، ص نفسها.

[39]- محمد كامل الخطيب: المنهج في الثبات والتحول لأدونيس. مجلة المعرفة السورية. ج30. ع175، ص ص 163-164 .

[40]- المرجع نفسه، ص ص 170-171.

[41]- جهاد فاضل: صدمة الحداثة لأدونيس (صدمة لأصول البحث العلمي ولروح الحداثة)، مجلة الفكر العربي، ص 292

[42]- المرجع نفسه ، ص 50.

[43]- حسن الأمران :الثابت والمتحول، مجلة المشكاة، المغرب ، ع7،س1987،2،ص08.

[44]- نبيل سليمان: مساهمة في نقد النقد الأدبي ،دار الطليعة ،بيروت ،ط1، 1983،ص33.

[45]- حسين مروة: حديث في التراث والرواية والشعر وأشياء أخرى ،مجلة أمال ،وزارة الإعلام والثقافة ،الجزائر ، ع53 ، 1981 ،ص57.

[46]- بشير تاوريريت :أدونيس في ميزان النقد ، ص 119.

[47] - المرجع نفسه ،ص118.